تفسير جزء تبارك

(سورة الحاقة)

من كتاب:

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

لِلْشَّيْخُ العَلَّامَة

عَبْدُ الرَّحْمَن بِن نَاصِر بِن عَبْدُ اللّهِ بِن سِعْدِيٍّ

رَحِمَهُ ٱللَّهُ

شَرْحُ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

أ.د: سليمان بن سليم اللّه الرحيلي

غَفَرَ اللّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس (١٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ الأتمان الأكملان عَلَىٰ المبعوث رحمةً للعالمين، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فمعاشر الفُضلاء؛ بين يدي الدرس أذكِّر نفسي وإخواني بفائدة رمضانية، وفائدتنا الليلة هي أن للصيام مزية في رجاء إجابة الدعاء، فالصائم تُرجىٰ إجابة دعوته، وذلك أن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال بين آيات الصيام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

قال هذا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقبل الآية آيات عن الصيام، وبعد الآية آيات عن الصيام، فدل هذا على أن للدعاء حال الصيام مزية.

وانظر الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى﴾ [البقرة:١٨٦]، لم يقل كسائر الأسئلة، فقل كذا، وإنما أجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦]، فمن الرشد للصائم ومن الهداية للصائم أن يُكثر الدعاء حال صيامه.

وصحّ عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: «ثَلاثُ دَعواتٍ لا تُرَدُّ: دعوةُ الوالِدِ، ودعوةُ الصائِمِ، ودعوةُ المسافِرِ»، فالصائم حال كونه صائمًا من أول صيامه وإمساكه عند طلوع الفجر إلى أن يُفطر تُرجى إجابة دعوته، فإذا دعا الصائم بعد الفجر رُجيت إجابة دعوته، وإذا دعا عند الضحى رُجيت إجابة دعوته، وإذا دعا ظهرًا أو دعا عصرًا أو دعا قبيل المغرب أو دعا عند إفطاره أو دعا عقيب إفطاره فنه تُرجى إجابة دعوته.

وقد جاء في بعض الأحاديث: «للصَّائِمِ حتَّىٰ يُفطِرِ».

وفي بعض الأحاديث: «حينَ يُفْطِر».

وللعلماء كلام في هذه الأحاديث، لكن المعنى صحيح، فللصائم دعوة منذ أن يبدأ الصيام إلى أن يفطر من صيامه، والعلماء يقولون: إن آخر العمل تتأكد فيه إجابة الدعاء، فلا شك أنه في آخر الصيام يتأكد رجاء إجابة الدعاء، فيحسن بالمسلم أن يكثر من الدعاء وهو صائم في جميع أوقات الصيام، وإذا أفطر وشرب الماء؛ فإنه يدعو بقوله: «ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ الله»، وهذا يُقصد به الدعاء.

وأنتم يا معاشر المؤمنين في هذا اليوم اجتمع لكم من أسباب رجاء إجابة الدعاء أنكم صائمون.

والأمر الثاني: أنكم في آخر يوم الجمعة، وفي يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه الله إياه، وهذه الساعة التي نحن فيها إلى غروب الشمس هي أرجى أوقات هذه الساعة الموعودة في يوم الجمعة، فمن صلَّى العصر وبقي في المسجد فهو قائم يصلي، فإذا سأل الله عَزَّ وَجَلَّ شيئًا رُجي أن يجيب الله دعاه أكثر من الرجاء في غير هذا الوقت.

فإذا كان الصائم في هذه الساعات يدعو لولده فإنه تجتمع له ثلاثة أسباب: أنه صائم، وساعة الجمعة المرجوة، وأنه يدعو لولده، فهو والد.

فإن كان الذي يفعل هذا مسافرًا اجتمعت له أربعة أسباب يعظم معها رجاء إجابة دعوته فهو صائم، وفي آخر يوم الجمعة، ووالد، ومسافر.

فحقيق بنا أيها الإخوة أن نغتنم هذه الفرصة العظيمة، وأن نبتهلها في الدعاء الخاص لنا ولأقربائنا وذرياتنا وأولى ذلك لوالدينا، والدعاء العام لمن في خيرهم خير للمسلمين وصلاح للمسلمين.

ثم إن درسنا في التفسير، ولا زلنا نفسِّر سورة الحاقة، وكنا بدأنا التفسير التفصيلي للمقطع الثاني من هذه السورة، ووقفنا في أثنائه، فكنا نقرأ ونفسِّر في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩].

ووقفنا في التفسير التفصيلي عند هذه الجملة حيث فسرناها، فيتفضل الابن نور الدين وفَّقه الله والسامعين يقرأ لنا من الموضع الذي وقفنا فيه من تفسير الإمام السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

(المتن)

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، أَمَّا بَعْدُ: فاللهم اغفر لنا ولشيخنا والسامعين.

قال الإمام السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: فحينئذ يُؤمَر بعذابه فيقال للزبانية الغِلاظ الشِّداد: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠]، أي: اجعلوا في عنقه غلًا يخنقه.

(الشرح)

وقيل: اربطوا يده إلى عنقه، وشُدوا رجليه إلى رقبته، ثم جروه على وجهه، وانظر أن الفاء هنا قد دخلت على فعل الأمر: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠]، والمقصود بها الإسراع في امتثال الأمر، خذوه سريعًا فأذلوه وأهينوه وعذِّبوه قبل أن يصل إلى النار، وذلك بغل يديه إلى عنقه، وشد رجليه إلى رقبته، وبسحبه سحبًا على وجهه، نعوذ بالله من سوء الحال.

(المتن)

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣١]، أي: قلِّبوه علىٰ جَمْرها ولهبها.

(الشرح)

﴿ثُمَّ﴾، أي عذِّبوه وأهينوه بما تقدم ذكره، ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣١]، والجحيم يا إخوة هي النار شديدة الحرارة، بعيدة القعر.

﴿صَلُّوهُ﴾، **قال الشيخ: أي قلبوه على جمرها ولهبها، أي: فاشووه بها، والتصلية تأتي بمعنيين:**

المعنىٰ الأول: الإدخال.

والمعنىٰ الثاني: التعذيب.

إذًا المعنى أوردوه النار وأدخلوه إياها واغمسوه فيها، وحرِّقوه بها، واشووه بلهبها، نعوذ بالله من سوء الحال.

(المتن)

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة:٣٢]، مِن سَلاسل الجحيم في غَاية الحرارة ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾، أي: انظموه فيها بأنْ تدخل في دُبُرِه وتخرج من فمه، ويعلَّق فيها.

(الشرح)

هذا من عذابه أن يؤتى بسلسة شديدة الحرارة طويلة فتُسلك فيه بأن تُدخل من دبره حتى تخرج من فمه، وخياشمه، يُعذَّب بها جوفًا وظاهرًا، ويُعلَّق بها فيعظم ألمه ويشتد عذابه، لكن بأي ذراع هي؟ هل المقصود ذراع الإنسان الذي يساوي حوالي نصف متر تقريبًا، فيكون طول السلسة خمسة وثلاثين مترًا تقريبًا؟ أم بذراع المَلك الذي لا يعلم قدره إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وهل هي سبعون حقيقية، أم أن المراد التكثير على عادة العرب أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا السبعين؟

الله أعلم بكل هذا، لكن لا شك أنها سلسلة عذاب تناسب حجم المعذَّب في النار، ولا شك أن حجم الكافر في النار يكبر جدًا ويغلظ جدًا حتى أن مقعده في جهنم كما بين مكة والمدينة، وهذه السلسة لا شك أنها تناسب حجمه في نار جهنم، نعوذ بالله من سوء الحال.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: فلا يزال يُعذَّب هَذا العذاب الفَظيع، فبئس العذابُ والعقاب، وَوَاحسْرةً له من التوبيخ والعتاب، فإن السَّبب الذي أوصله إلىٰ هذا المحل: ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٣٣]، بأنْ كان كافرًا بربه معاندًا لرسله رادًا مَا جاءوا به مِن الحق.

(الشرح)

مكذِّبًا بيوم القيامة، وهذا أقوى أسباب تعذيبه، فإنه يُعذَّب لأسباب أقواها كفره الذي يوجب خلوده في النار، وخلوده في العذاب فلا يموت فيرتاح، ولا يخفف عنه من العذاب، بل يُقال له ذق فلن نزيدك إلا عذابًا، نعوذ بالله من سوء الحال.

(المتن)

﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة:٣٤]، أي: لَيس في قَلبه رَحمة يَرحَمُ بها الفقراء والمساكين فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحضُّ غيره علىٰ إطعامهم، لِعدم الوَازِع في قلبه.

(الشرح)

ومعنىٰ: ﴿وَلا يَحُضُّ﴾ [الحاقة:٣٤]، أي ولا يحث غيره ولا يحث غيره على إطعام المسكين، وإذا كان بخل أن يحث غيره على إطعام المسكين فمن باب أولى أنه لن يُطعم المسكين، فهو يجمع بين خصلتين من أقبح الخصال وأشرها: يجمع بين البخل وقسوة القلب، فهو بخيل لا يطعم المساكين، وهو قاسي القلب لا يحث غيره على إطعام المساكين، وهذا سبب من أسباب تعذيبه في النار.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَذلك لأنَّ مدار السَّعادة ومادتها أمران: الإخْلاص لله، الَّذي أصله الإيمان بالله، والإحْسَان إلىٰ الخَلقِ بجمِيع وجوه الإحسَان، الَّذي مِن أعظمها، دَفع ضَرورة المحتاجين بإطعامهم ما يَتقوَّتُون به، وهؤلاء لَا إخلاصَ ولَا إحسان؛ فلذلك استحقوا ما استحقوا.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة:٣٥] أي: يوم القيامة ﴿حَمِيمٍ﴾؛ أي: قريبٌ أو صديقٌ يشفع له لِينجُو مِن عذاب الله أو يفوز بثوابه: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

(الشرح)

يوم القيامة ليس لهذا المخذول حميم من صديق أو قريب ينفعه بشفاعة تُقبل أو بحسنات يعطيها له، وكذلك في النار لا يكون معه حميم يهوِّن عليه العذاب، وإنما يدخل النار ويُعذَّب ولا يُخفف عنه من عذابها.

(المتن)

وليسَ له طعامٌ إلَّا من غِسلين وهو صَديد أهْل النَّار، الَّذي هُو في غَاية الحَرارة والمَرارَةِ، ونَتَن الرِّيحِ، وقُبح الطَّعم.

(الشرح)

وقيل إن الغسلين هو دم أهل النار، وعرق أهل النار، فالصديد الذي ينفصل من جلود الكفار والقيح والدم والعرق يكون غليظًا، حارًا شديد الحرارة، مُنتِنًا غاية النَّتن، فيتناوله هؤلاء الخاطئون فلا يدفع عنهم جوعًا، ولا يعطيهم قوة، ولا يجدون لذَّة في تناوله.

وفسِّر الغسلين بهذا أنه قيح وصديد ودم وعَرَق أهل النار؛ لأن غسلين فِعْلِين من الغِسل، والغِسل هو ما يُغسل من أبدانهم، فكأن هذا لانفصاله عن أبدانهم قد غُسلوا بهم فهو غِسْلُهم، فهذا هو طعامهم.

وقال بعض المفسرين: إن غِسلين شجرة قبيحة في جهنم، مرآها مُفزع، وطعمها مر، وريحها مُنتِن، وهي حارة شديدة الحرارة.

وقال بعض المفسرين: إن المراد بغسلين شر طعام أهل النار، وكل طعام أهل النار شر، لا يدفع جوعًا، ولا يُحصِّل لَذَّة، ولا يبني قوة، لكن هذا شر طعامهم، نعوذ بالله من سوء الحال.

(المتن)

لا يأكلُ هذا الطعام الذَّميم ﴿إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة:٣٧]، الذين أخطأوا الصِّراط المستقيم، وَسلكوا كُلَّ طريقٍ يُوصِلَهم إلىٰ الجَحيم؛ فلذلكَ استحقوا العَذاب الأليم.

(الشرح)

وقد قلنا سابقًا إن الخاطئ هو الذي يترك الحق والهدى بقصد، فهو خاطئ وليس مخطئًا، وإنما خاطئ فاعل للخطيئة، متعمد للخطيئة، تارك للهدى والحق، قاصدًا متعمدًا، نعوذ بالله من سوء الحال.

ثم نقرأ الآيات في المقطع الأخير من هذه السورة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٨-٥٢].

في هذه الآيات الكرمة العظيمة يُقسم الله قَسما عظيمًا عامًا هو أعم الأقسام على الإطلاق، حيث يقسم بذاته المقدسة، وبجميع المخلوقات ما يراه البشر منها وما لا يرونه، على صدق رسوله محمد بن عبد الله صلَّى الله عَليه وسلَّم، وعلى تنزيهه عن جميع النواقص التي رماه بها المكذِّبون له، الكافرون

بدينه، وهم يعلمون براءته من كل ما يرمونه به، فهو الملقب عندهم بالصادق الأمين من قبل أن يُبعث صلَّى الله عَليه وسلَّم.

فالقرآن قول أكرم رسولين على الإطلاق: قول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي سمعه من ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فبلَّغه رسول الله صلَّى الله عَليه وسلَّم، فكان قولًا له باعتبار أنه أسمعه لرسول الله صلَّى الله عَليه وسلَّم، كما في قول الله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

والرسول الثاني أشرف رسل البشر محمد صلَّى الله عَليه وسلَّم الذي سمعه من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأبلغه للأمَّة وأسمعه للصحابة رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم، فكان القرآن قولًا له صلَّى الله عَليه وسلَّم باعتبار أنه بلَّغه للناس، وسمعه الناس منه، فهو تبليغ من رسولين كريمين عند الله، متصفين بأحسن الأخلاق وأعلاها، وبأجمل الصفات وأكملها مما يليق بالمخلوقات.

وليس القرآن بقول شاعر كما زعم بعضكم أعني الكفار كفار قريش، فإنكم تعرفون الشِّعر معرفة تامة، وأنتم أهله، وتدركون إدراكًا تامًا أن هذا القرآن لا يشبه الشِّعر في شيء، ولا يشبهه الشِّعر في شيء.

كما أنكم تعرفون محمدًا صلَّى الله عَليه وسلَّم وأنه ليس شاعرًا ولا يجالس الشعراء صلَّى الله عَليه وسلَّم، فما نطق بالشِّعر ولا اختلف إلى الشعراء، ولا تعلَّم الشعر، وهذا أمر واضح بيِّن، لكنكم أيها الكفار قليلًا ما تؤمنون، فكان إيمانكم قليلًا غير نافع، حيث آمنتم بربوبية الله، وكفرتم بألوهيته فلم ينفعكم ذلك شيئًا، وقلة إيمانكم هي التي دعتكم إلى رمي هذا الرسول الكريم صلَّى الله عَليه وسلَّم بأنه شاعر وأنتم تعلمون وتوقنون براءته من ذلك.

وليس هذا القرآن الذي يتلوه عليكم رسولنا الكريم صلَّى الله عَليه وسلَّم بقول كاهن لا في لفظه ولا في معانيه، ولا في إحكامه وعدم تناقضه، وهذا الأمر أوضح من الشمس لكنكم قليلًا ما تتذكرون وتتأملون وتتدبرون، فلو تأملتم أدنى تأمل لأدركتم أنه لا تشابه بين القرآن وكلام الكهان، بل لو فكرتم قليلًا لأدركتم أنه لا يمكن أن يكون القرآن كلام كاهن؛ لأن القرآن يسفِّه الكهان ويبطل قولهم ويرد عليهم، فكيف يكون قائله كاهنًا وهو يرد عليهم ويسفِّههم ويبطل قولهم وكيدهم؟! كما أن النبي

صلَّى الله عَليه وسلَّم كان يُبغض الكهان من قبل بعثته، وما كان يختلف إلى الكهان صلَّى الله عَليه وسلَّم.

وإنما هذا القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين العالي فوق جميع مخلوقات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تكلم به سبحانه فأسمعه جبريل، وأمر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينزل به على محمد صلَّى الله عَليه وسلَّم الكريم، وكلما سمع جبريل آيات من الله عَزَّ وَجَلَّ نزل بها على رسولنا الكريم صلَّى الله عَليه وسلَّم فأسمعها للصحابة رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم -أعني أسمعها رسول الله صلَّى الله عَليه وسلَّم للصحابة-.

هذا القرآن كلام الله منه بدأ فهو تنزيل منه ونزل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا القرآن الكريم فيه تربية العالمين من الجن والإنس خير تربية.

هذا الذي تقدم هو جواب القسم العظيم الواسع فأولًا أقام الله عَزَّ وَجَلَّ برهانًا قاطعًا على صدق محمد صلَّى الله عَليه وسلَّم بهذا القَسَم العظيم الواسع الجامع.

ثم أثبت الله عَزَّ وَجَلَّ صدق رسوله صلَّى الله عَليه وسلَّم بأمر آخر هو أيضًا برهان قاطع، فلو أن هذا الرسول يكذب على ربه وحاشاه صلَّى الله عَليه وسلَّم في قول واحد أو بعض الأقاويل يختلقها وينسبها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويتوعد مكذبيها بالنار والعذاب والقتل في الدنيا، لو كان ذلك كذلك لاقتضت حكمة الله وقدرة الله أن يفضح كذبه، أو أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فإن كمال علم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته وحكمته تأبى أن يُقر مَن يكذب عليه ويُضل عباده، بل لابد أن يفضحه أو يأخذه أخذًا سريعًا والأمر يسير عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فإنه لو شاء لانتقم منه بقوته وقدرته، وأخذ بيمينه عقابًا له وإذلالًا له.

ولو شاء لقطع عرق قلبه الذي إذا قُطع مات الإنسان فورًا، أو قطع نخاعه الشوكي مما يعجزه ويُقعده فورًا، ولو فعلنا ذلك لما استطاع أحد أن يدفع عنه ذلك، لكن كل ذلك لم يكن، بل رأيتم رأي العين كيف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحفظ رسوله من أذاكم ويحفظه من كيدكم، ويؤيده بالبراهين الدالة على صدقه فدل ذلك دلالة يقينية على أنه رسول من الله ما كذب على الله في حرف واحد صلَّى الله عَليه وسلَّم، ودل على أن القرآن كلام الله من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يختلق منه الرسول صلَّى الله عَليه وسلَّم شيئًا، فهذا البرهان الثاني.

ثم ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ برهانًا ثالثًا قطعيًا يقينيًا على صدق حبيبنا وإمامنا وقرة أعيننا محمد بن عبد الله صلَّى الله عَليه وسلَّم، وعلى أن القرآن نزل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكلم به فنزل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا البرهان هو أن في القرآن تذكرة وعبرة وعظة للمتقين، الذين ينتفعون بالقرآن في جميع أمورهم وجميع أحوالهم، فمن اهتدى بالقرآن وجد الهدى استقام حاله، واطمأن قلبه، والله ما تلا القرآن مصدِّق به إلا امتلأ قلبه إيمانًا واطمئنانًا وراحة، وما عمل أحد بالقرآن إلا وجد أنه على استقامة وأنه على هدى، وأنه على خير.

فهذا برهان قاطع على أن القرآن من عند الله، فلو لم يكن من عند الله لما كان له هذا الأثر، ولما كانت له هذه الفائدة العظيمة التي يجدها المؤمنون يقينًا ويوقنون بها، ومع كل هذه البراهين القطعية فإنكم يا أيها الضلَّال يا أيها الكفَّار تكذبون بالقرآن، وتكذِّبون رسولنا صلَّى الله عَليه وسلَّم ونحن أعلم بكم وبما في قلوبكم، وإنا على أخذكم لقادرون، وعلى تعذيبكم في الدنيا أو في الآخرة لقادرون، وأن هذا القرآن مع كونه هدى وذكرى للمتقين حسرة وندامة كبرى على الكافرين حين يرون العذاب العظيم حيث لا تنفعهم الندامة والحسرات، بل يكون فيها مزيد تعذيب لهم، كما أن تكذيب الكفار للقرآن ولرسول الله صلَّى الله عَليه وسلَّم حسرة وندامة عليهم يوم القيامة حيث يتحسرون حسرة شديدة تقطِّع قلوبهم أنهم لم يكونوا من المصدقين لرسول الله صلَّى الله عَليه وسلَّم، ولم يكونوا من المصدقين بالقرآن، ولا تنفعهم تلك الحسرات شيئًا.

وبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن الرسول محمدًا صلَّى الله عَليه وسلَّم هو الحق اليقين، الذي لا شك فيه، حيث دلت البراهين القطعية على أنه رسول الله صلَّى الله عَليه وسلَّم وعلى صدقه، فلا يدفع ذلك إلا مكابر أو معاند، ان القرآن حق اليقين، فما فيه أعلى درجات العلم، إذ اليقين أعلى العلم، وأعلى اليقين حق اليقين.

ثم ختم الله السورة بخاتمة مناسبة لما في السورة من بيان عظمة الله وقدرته، وأخذه لأعدائه، وإنجائه للمؤمنين، وما يُجريه يوم القيامة وصدق رسوله صلَّى الله عَليه وسلَّم وإنزاله كتابه فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٥٢]، أي فنزِّه اسم ربك العظيم عن إخلائه من معناه، وهذا

يستلزم أن تنزه ربك العظيم عما لا يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مما ينسبه إليه الكافرون والمنحرفون والمبطلون.

هذا هو التفسير الإجمالي الإيماني الموضوعي لهذه الآيات، ثم نرجع إلى التفسير التفصيلي لهذه الآيات فنقرأ ما سطَّره الإمام السعدي رحمه الله عَزَّ وَجَلَّ، ونعلق عليه

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: أقْسَم تعالىٰ بما يُبصر الخَلْق مِن جميع الأشياء ومَا لا يُبصرونَه، فدخَل في ذلك كلُّ الخَلْق، بَل دخل في ذلك نفسه المقدَّسة، علىٰ صِدق الرَّسول بما جَاء به مِن هذا القرآن الكريم، وأنَّ الرَّسول الكريم بلَّغه عِن الله تعالىٰ.

(الشرح)

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨] ﴿وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٩]، ﴿فَلا﴾ لا هذه مقوية للقسم، مؤكدة له.

والمعنى إني أقسم هذه الـ﴿لا﴾ بعض المفسرين يقول زائدة، وبعضهم يقول صلة، أي زائدة من جهة الإعراب، وإلا فليس في القرآن زائد من جهة المعنى، ولا يمكن حذف حرف واحد من القرآن، ﴿فَلا﴾ هنا مؤكِّدة للقسم، مقوية للقسم.

وقال بعض المفسرين إن المراد بها أن المذكور بعدها ثابت واضح، لا يحتاج إلى قَسَم ليؤكده، لكن الكافرين لا يفقهون.

وقال بعض المفسرين ﴿فَلا﴾ نفي لما ينسبه الكفار إلى القرآن وإلى محمد صلَّى الله عَليه وسلَّم، فكأن الله يقول لهم ليس الأمر كما تزعمون، وليس الأمر كما ترمون به كتابنا ونبينا صلَّى الله عَليه وسلَّم، بل أقسِم بما تبصرون وما لا تبصرون.

﴿مَا تُبْصِرُونَ﴾، أي ما ترونه.

﴿وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٩]، أي ما لا ترونه.

وهذا أوسع قَسَمٍ في القرآن على الإطلاق، أوسع قسَم وأعظم قَسم هذا القسَم من الله عَزَّ وَجَلَّ حيث جمع كل شيء.

وقتال بعض السلف: بما تبصرون من الخلق، وما لا تبصرون من الخلق، فكما أن هذه المخلوقات حق فالمقسم عليه بهذا القسم حق.

والشيخ يرى أن هذا أوسع من المخلوقات، بل أُقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، فيدخل في ذلك كل ما تبصرونه بأعينكم وكل ما لا تبصرونه، ومن ذلك ذاته المقدسة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

قال: وأنَّ الرسول الكريم بلَّغهُ عن الله تعالىٰ، ونزَّه الله رسوله عمَّا رَماهُ به أعداؤه، مِن أنه شَاعِر أو سَاحِر، وأنَّ الذي حملهم علىٰ ذلك عدمُ إيمانهم وتذكُّرِهم، فلو آمنوا وتذكروا مَا ينفعهم ويضرهم.

(الشرح)

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠]، ﴿إِنَّهُ﴾، الضمير يرجع إلى القرآن، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ [الحاقة:٤٠]، هو قول الرسول باعتبار أنه سمعه فبلَّغه، ومَن الرسول هنا؟

كثير من المفسرين على أنه رسولنا محمد بن عبد الله صلَّى الله عَليه وسلَّم.

وقال جمع من السلف وبعض المفسرين: هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا مانع من أن يكون المقصود الرسولين، فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول كريم، ومحمد بن عبد الله صلَّى الله عَليه وسلَّم رسول كريم، وهو رسول فما هو إلا رسول مبلِّغ لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمعلوم يا إخوة أن الرسول يقول للناس كلام مُرسِلِهِ، فيقال هذا قول الرسول، لكن لا يقال كلام الرسول، يقال هذا قول الرسول؛ لأنه بلَّغ الناس كلام مُرسِلِهِ، لكن لا يقال كلام الرسول؛ لأنه كلام المرسِل، فهو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠]، أي أنه شريف، عظيم الفضل عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه كريم في أخلاقه وخصاله الحميدة، فأثبت الله عَزَّ وَجَلَّ للرسولين أعني جبريل ومحمدًا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ الرسالة والكرامة، فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أكرم الملائكة، ومحمد صلَّى الله عَليه وسلَّم أكرم البشر وسيد ولد آدم أجمعين.

ثم نفى عن نبيه صلَّى الله عَليه وسلَّم ما رماه به المكذبون له، الكافرون وهم يعلمون أنهم يكذبون عليه، قال الله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة:٤١]، أي ليس القرآن بقول شاعر، كما قال بعضكم فإنكم تدركون أن الشِّعر لا يشبه القرآن في شيء، وأن القرآن لا يشبه الشِّعر في شيء.

﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤١]، أي إنما دعاكم إلى هذه الفِرية قلة إيمانكم.

﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة:٤٢]، يقول كلامًا مسجوعًا ويدَّعي أنه يعلم الغيب، فإنكم تعلمون بفصاحتكم أن ألفاظ القرآن ليست كألفاظ الكهَّان، وأن معاني القرآن لا يستطيع الكهان لو اجتمعوا بل البشر لو اجتمعوا أن يأتوا بمثلها، فالقرآن معجِزٌ بلفظه ومعناه، ولو تأملتم أقل تأمل لأدركتم أنكم إنما تفترون أكذب الكذب.

قد يقول قائل: نفى الله هنا أنه قول شاعر، ونفى أنه قول كاهن، فلماذا لم ينفِ الله عن رسوله صلَّى الله عَليه وسلَّم أنه مجنون كما رماه به بعضهم؟ أَوْ أنه ساحر كما رماه به بعضهم؟

الجواب من وجهين:

الوجه الأول: أنه لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠]، انتفى أن يكون مجنونًا أو أن يكون ساحرًا، فلا حاجة لذكره.

والوجه الثاني: أن الكلام هنا متعلق بالرسالة من جهة القرآن، والذي زعموه ورموا به النبي صلَّى الله عَليه وسلَّم من جهة القرآن أنه كاهن أو أنه شاعر، فالذي جاء بهذا القرآن قال بعضهم إنه شاعر، وقال بعضهم إنه كاهن فرد الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم قولهم.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلو آمنوا وتذكَّروا ما ينفعهم ويضرهم، ومِن ذلك أن ينظروا في حَال محمد صلَّىٰ الله عَليه وسلَّم، ويَرمُقوا أوصَافه وأخْلَاقه، لِيَرَوا أمرًا مثل الشمس يدلهم علىٰ أنَّه رسولُ اللهِ حقًا، وأنَّ مَا جَاء بِهِ تنزيلٌ مِن ربِّ العالمين، لا يليقُ أنْ يكون قولًا للبشر، بل هو كلام دالٌ عَلىٰ عَظَمةِ مَن تكلَّم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لِلْخَلْقِ، وعُلوِّه فوق عباده، وأيضًا فإنَّ هذا ظنٍ منهم بما لا يليقُ بالله وحِكمَتِهِ.

(الشرح)

لعلنا نقف عند هذه النقطة؛ لأنا نراعي حال إواننا أصحاب السفر جزاهم الله خيرًا على إحسانهم، ونراعي أيضًا أن بعض إخواننا يعاونون أصحاب السفر فلا تريد أن نحبسهم.

ومن وجه آخر: عادتي في يوم الجمعة أن أخفف الدرس شيئًا ليتفرغ الإخوة للدعاء، أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أنم يجيب دعاءهم.

غدًا إِنْ شَاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ عندنا درس بعد العصر في هذا المكان في التفسير، وأما درس الفجر فالحقيقة أني كنت قررته لما سالت عن دروس الشيخ الفاضل الشيخ العالم عبد الرزاق البدر فقيل لي: إنه سيدرِّس من الأحد إلى الجمعة، فأردت أن أزيد درسًا بحيث يكون يوم السبت فجرًا مع دروسنا، ولما علمت أن الشيخ سيدرِّس حتى السبت تردت كثيرًا في الدرس.

والحقيقة بعد الامل والتدبر رأيت أن الأصلح لطلابي أن ألغي درس الفجر؛ لأن الطلاب أكثرهم يكون مع الشيخ في بقية الأيام، فرأيت ألا أخرهم حضورهم لدرس الفجر، فسنبقي على دروسنا في العصر إِنْ شَاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ، حيث تكون الدروس في عصر الأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم إِنْ شَاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ إذا احتجنا إلى شيء نزيد دروسًا بعد العصر إِنْ شَاءَ اللهُ في حينه.

إذًا غدًا رأيت ألا أقيم درس الفجر رأيت أن المصلحة الأرجح أن ألغيه مع رغبتي فيه، وسيكون عندنا درس بعد العصر إِنْ شَاءَ اللهُ في مثل هذا الوقت في هذا المكان.

(الأسئلة)

السؤال: يقول: صاحب فشل الكلى الذي يغسل ثلاث مرات في الأسبوع وهو يقوى على صيام الأيام التي يغسل فيها هل يجوز له الفطر؟

الجواب: أولًا يا إخوة: المبتلى بالفشل الكلوي أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يشفي مرضنا ومرضى المسلمين، وأن يصبِّر كل مبتلى، المصاب بالفشل الكلوي يحتاج أن يغسل وفي حال غسل الكلى بنوعيه فإنه يُفطر بهذا وليس له أن يصوم، والغالب أن يكون غسيل الكلى ثلاث مرات في الأسبوع، فما بين هذه المرات هل لمريض الكلى أن يفطر؟

الجواب: نعم له أن يفطر لأنه مريض يؤثِّر عليه الصوم، فلا شك أن له أن يفطر، لكن هل له أن يصوم؟ هذا السؤال، هل له أن يصوم إذا كان قادرًا على الصوم؟ نقول: يجب أن يرجع إلى الطبيب، فإذا قال الطبيب المختص إن الصوم يضره لأن كلاه لا تعمل، والجفاف يؤثر عليه ويضره ضررًا بينًا فإنه لا يجوز له أن يصوم، أما إذا قال له الطبيب نفضِّل ألا تصوم فله أن يصوم إن شاء ما دام قادرًا على الصوم.

السؤال: يقول: اثنان من الإخوة الأشقاء على أحدهم دين لأخيه له، وأخوه يخرج الزكاة، يسأل يقول: هل له أن يعطيه لها نقدًا، ثم يقوم أخيه المدين بإرجاعها له تسديدًا لدينه، فهل يصح هذا؟

الجواب: يقول: لأحد الأخوين دين على أخيه، فهل يجوز للدائن أن يعطيه من زكاته على أن يردها إليه لسداد الدين؟ نقول: أما المواطأة على أن يرد إليه المال ليسد دينه فلان أما أن يعطيه من زكاته لأنه مدين ثم هو يسدد دينه الذي عليه بهذه الزكاة سواء كان الدين الذي لأخيه أو لغيره فلا بأس، يجوز له أن يعطي أخاه من زكاته لكونه مدينًا، لكن لا يشترط عليه أن يردها إليه، بل هو إن شاء ردها إليه وسدد دينه، وإن شاء أعطاها لدائن آخر.

السؤال: يقول: أنه شرب ما بعد أذان فجر الثاني بعشر دقائق ظنًا منه بأنه الأول، ماذا عليه؟

الجواب: يقول الأخ إنه سمع المؤذن يؤذِّن فظنه الأذان الأول فشرب، ثم تبين له أنه الأذان الثاني الذي يكون عند طلوع الفجر الصادق، فماذا عليه؟ الجواب: إذا لم يكن هناك تفريط منك وتقصير في

النظر فلا شيء عليك، ولا يلزمك شيء، أما إن كان هناك تفريط منك أو تقصير أو إهمال أو شبه تعمد فإنه يلزمك القضاء.

السؤال: يقول: هذا رجل مصاب بمرض بحيث يخرج من دبره دم متواصل، يسأل عن طهارته وصلاته.

الجواب: هذا به حدث دائم، وقد ذكرت لكم مرارًا أن الحدث الدائم يُطلق على الخارج من السبيلين باستمرار، كما في دم المستحاضة التي يخرج منها الدم باستمرار، كما يطلق على الذي يخرج من أحد السبيلين ولا يُعلم وقت توقفه، أي يخرج ويتوقف، ويخرج ويتوقف، لكن لا يُعلم وقت توقفه، لا يُعلم له وقت يتوقف فيه بحيث نقول تطهر هنا وصلِّ، هذا كه يسمى حدثًا دائمًا.

ومن به حدث دائم سواء من جهة البول أو الريح أو خروج الدم أو نحو ذلك فإنه إذا دخل الوقت يغسل المكان، إذا كان حدثه من بول أو دم يغسل المكان، ثم يضع على المكان ما يمنع تلويث ثيابه أو تلويث المكان المسجد، ثم يتوضأ فيبقى متوضئًا ما بقي الوقت وقت الصلاة، إلا أن يحصل منه حدث آخر غير حدثه الدائم، بمعنى يا إخوة إذا توضأ بعد دخول الوقت، بعد أن فعل ما قلنا خروج هذا الحدث الدائم ما ينقض وضوءه يبقى على وضوء، إلا إذا حصل حدث آخر غير الحدث الدائم فإنه كغيره ينقض الحدث وضوءه، فله أن يصلي، وله أن يقرأ القرآن، وله أن يطوف حتى يخرج وقت الصلاة التي توضأ في أول وقتها، فينتقض وضوؤه بخروج الوقت، فإذا دخل الوقت الآخر وأوقات الصلوات في الغالب متتابعة متتالية في الغالب يتوضأ للوقت التالي، وكذلك يستمر إلى خروج الوقت.

فإن شق عليه ذلك فله أن يجمع بين الظهر والعصر فيتوضأ عند دخول وقت الظهر ويصلي الظهر والعصر ويبقى طاهرًا إلى أن يخرج وقت العصر، من وقت الظهر إلى نهاية وقت العصر، ويجمع بين المغرب للعشاء، ويتوضأ لدخول وقت المغرب ويصلي المغرب والعشاء ويبقى طاهرًا حتى يخرج وقت العشاء، ثم إذا دخل وقت الفجر يتوضأ لدخول وقت الفجر، ويبقى طاهرًا إلى أن يخرج وقت الفجر.

هذا تفصيل ما يتعلق بطهارة مَن به حدث دائم كحال أخينا هذا المريض بمرض يقتضي نزول الدم من دبره باستمرار أو ما يشبه الاستمرار.

لعلنا نقف هنا، وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يفقِّهنا جميعًا في ديننا، ويعلِّمنا تأويل كتابه، وينفعنا بهذا العلم، ويجعلنا من عباده الصلحين.

واللهُ تَعَالَى أَعْلَى وَأَعْلَمُ، وَصَلَّ اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّم.